الآفاق البعيدة فى عبارات قصيرة ، وكان يرى خدمة اللغة لا تأتى على الدوام عن طريق مباشر . خدمة اللغة هى خدمة الحساسية ، ولن تتفتح اللغة أمامنا مادمنا لانولى شئون القيمة حقها من العناية .

فى عصر العقاد ، وعلى الأدق فى عام ١٩٢٧ ، وفى عصرنا هذا ، ذوقان مختلفان على أقل تقدير ، ويمكن أن نترجم عن هذين الذوقين أحسن ترجمة مستطاعة إذا اقتبسنا وقفة العقاد أمام بعض أبيات الشعر ومقارنته بينها ، هناك ضرب من الاختلاف فى رواية بعض أبيات للبارودى ، فقد نشر المرصفى نصا لقصائده مختلفا عن النص الذى نشر بعد وفاته ، وللبارودى قصيدة يجارى فيها أبا فراس ، وقد جاء فى هذه القصيدة نصان اثنان لبيت واحد ، هما :

اقاموا زمانا ثم بدد شملهم .. ملول من الايام شيمته الغدر

ولكن صاحب الوسيلة الأدبية روى البيت على الصورة التالية :

اقاموا زمانا ثم بدد شملهم .. اخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

وكان من الطبيعى أن يختلف القراء فيما بينهم حول ترجيح إحدى الروايتين من الناحية الفنية ، فأما الذوق المتأثر بالبلاغة العربية فيرى صاحبه أن الصورة الثانية أجود ، أو أن قول البارودى « ملول من الأيام » بعد قوله « ثم بدد شملهم » من أضعف التراكيب » بخلاف (أخو فتكات بالكرام) فإن هذا التركيب جمع بين الجزالة والرقة اللتين بلغتا منتهاهما فى آخر البيت حين فسر شاعرنا الكناية بقوله اسمه الدهر ، أضف الى ذلك أن حزن الشاعر يتجلى فى الشطر الأخير على أولئك النفر الغر الذين بدد الزمان شملهم ، وهذا أتم للمعنى وأوفى وأكثر اتصالا بما جاء بعد ذلك .

وتقدم العقاد فأشار الى ولع البلاغة بالضجيج والتهويل فى الصورة الثانية ، وربما حرصت البلاغة على أن تصور الحوادث التى تبدد الشمل ، كحوادث السكك الحديدية ونكبات الزلازل وانقضاض الصواعق ، وتنسى أن التغير من حال الى حال طبيعة الدنيا ولو لم تقع المفاجآت الدواهم .

وربما كانت البلاغة العربية أقرب رحما بالفتك منها بالملالة أو الضجر والسآمة ،